



عبر رئيس الوزراء العراقي حيدر العبادي أخيراً عن اندهاش وانزعاج من تصريح لرئيس هيئة الأركان الأميركي الجنرال أوديرنو، قبيل تقاعده، قال فيه أن تقسيم العراق «يمكن أن يحدث»، بل إنه «قد يكون الحل الوحيد».

كانت تلك خلاصة انتهى إليها عسكري قيادي أمضى أعواماً عدة في العراق، وبمعزل عن دوافعه ونياته فالمؤكد أنه تعامل مع جميع مكونات المجتمع وتحادث معها بصرامة لا تميز العلاقات في ما بينها.

لكن رد مكتب العبادي اعتبر تصريحاته «غير مسؤولة» وتنم عن «جهل» بالوضع في العراق. كل من يريد للعراق أن «يبقى» (!) موحداً يتمنى طبعاً أن يكون العبادي محقاً وأكثر علماً بحقائق بلده، وهو مؤهل لذلك. لكن، بعد أسبوع، كان المرجع الشيعي الأعلى في العراق آية الله علي السيستاني من أشار إلى «ال التقسيم» ولو من زاوية مختلفة وفي سياق إلحاده على مواصلة الإصلاحات التي أعلن عنها رئيس الوزراء، بل المضي بها بوتيرة أكثر سرعة.

قال المرجع، في إجابات مكتوبة عن أسئلة لـ «فرانس برس»: «إذا لم يتحقق الإصلاح الحقيقي من خلال مكافحة الفساد بلا هوادة وتحقيق العدالة الاجتماعية على مختلف الأصعدة، فإن من المتوقع أن تسوء الأوضاع أزيد من ذي قبل، وربما تنجر إلى ما لا يتمناه أي عراقي محب لوطنه من التقسيم ونحوه لا سمح الله». وذهب المرجع أبعد حين حمل «الذين حكموا البلاد خلال السنوات الماضية» معظم المسؤولية عما آلت إليه الأمور، لأن «كثراً منهم لم يراعوا المصالح العامة للشعب العراقي، بل اهتموا بمصالحهم الشخصية والفئوية والطائفية والعرقية، فتقاسموا الواقع والمناصب الحكومية وفقاً لذلك، لا على أساس الكفاءة والنزاهة والعدالة»...

طوال فترة الاحتلال، لم يلتقي المرجع الشيعي أي مسؤول أمريكي رغب في مقابلته، لكنه يلتقي اليوم والجنرال الأميركي على استخلاص واحد، من دون أن يتقصد ذلك. وفي العامين اللذين سبقا الانسحاب الأميركي ب拇ياة 2011 كثُف مسؤولو سلطة الاحتلال إلحادهم على رئيس الحكومة آنذاك نوري المالكي لبدء العمل على «المصالحة الوطنية» التي كان أعطاها أولوية في البرنامج الحكومي، معتبرين أن المصالحة شرط سياسي ضروري لتدعم التهدئة الأمنية التي تأمنت بتعاون «الصhofas السنّية». كان الأميركيون أدركوا الأخطاء التي ارتكبوها خلال الاحتلال، وإن لم يعترفوا بها حتى اليوم، إلا أن توصياتهم كانت واقعية وفي محلها. كان لدى المالكي مفهوم آخر للمصالحة، وأالية أخرى لتحقيقها بالفساد والإفساد العابرَين للمكونات، وبسياسة «فرق تسد» التي نجح جزئياً في تطبيقها حيال السنة.

كان المالكي يعتقد أنه يبني دولة الإخضاع للآخرين، لكنه في الحقيقة كان يصنع التقسيم صناعةً، وهو ما تبدى في العامين الأخيرين من حكمه حين عامل اعتصامات السنة بتجاهل واحتقار، وتحديداً في الشهرين الأخيرين اللذين اختتمهما بسحب الجيش من الموصل وترك «داعش» يستولي عليها قبل أن يحتلّ أجزاء من العراق وسوريا.

ليس واضحاً ما قصده العبادي بإشارته إلى «جهل» الجنرال الأميركي بالوضع في العراق. ربما استند إلى تجربة حكومته التي تمثل أطيافاً عدّة وتقيم تعاوناً مع السنة ولا يمكن اتهامها بالهيمنة الفظة أو بالنزعـة الاستبدادية اللتين عُرفـ بهما سلفـهـ.

غير أن مسحة التاطيف التي أضافـها على نهجـ الحكمـ لا تزالـ بعيدـةـ منـ إعادةـ اللحـمةـ إلىـ أجزاءـ الـبلـدـ، بلـ يـلزمـهـ الكـثيرـ ليـجعلـ منـ بـغـدـادـ عـاصـمـةـ جـامـعـةـ وـمـنـ حـكـومـتـهـ إـدـارـةـ مـرـكـزـيةـ عـلـىـ مـسـافـةـ وـاحـدـةـ مـنـ الجـمـيعـ. ولـعـلـ ضـمـ مـيلـيشـياتـ «ـالـحـشـدـ الشـعـبـيـ»ـ إـلـىـ كـنـفـ «ـالـدـوـلـةـ»ـ شـكـلـ تـهـمـيـشاـ مـشـرـعـناـ لـلـجـيـشـ الـوطـنـيـ بـمـقـدـارـ ماـ أـثـبـتـ أـنـ شـيـئـاـ لمـ يـتـغـيـرـ فـيـ مـاـ تـأـمـرـ بـهـ إـيرـانـ وـتـطـاعـ. فـمـاـ بـُـنـيـ عـلـىـ خـطـأـ لـاـ بـزـالـ بـرـاكـمـ الـأـخـطـاءـ، وـهـوـ مـاـ ظـهـرـ أـيـضاـ فـيـ مـعـارـكـ طـرـدـ «ـدـاعـشـ»ـ مـنـ الـمـنـاطـقـ السـنـيـةـ، فـمـاـ تـحـرـرـ مـنـ هـنـاـ -ـ كـدـيـالـيـ وـبعـضـ صـلـاحـ الدـيـنـ -ـ لـمـ يـشـعـرـ أـهـلـهـ بـأـنـهـ يـعـودـونـ إـلـىـ «ـالـوـطـنـ»ـ، بلـ تـخـلـصـواـ مـنـ تـسـلـطـ لـيـقـعواـ تـحـتـ تـسـلـطـ آـخـرـ تـدـيرـهـ إـيرـانـ بـمـعـزلـ عـنـ الـحـكـومـةـ لـكـنـ بـمـعـرـفـتهاـ. هـكـذاـ، فـبـدـلـ أـنـ يـشـكـلـ «ـالـتـحـرـيرـ»ـ اـخـتـبـارـاـ إـيجـابـياـ حـاسـمـاـ لـمـصـلـحةـ وـحدـةـ الـعـرـاقـ إـذـاـ بـهـ يـفـرـضـ تـأـخـيرـاـ بـعـدـ تـأـخـيرـ فـيـ اـسـتـرـجـاعـ الـمـنـاطـقـ الـمـحـتـلـةـ -ـ لـاـ سـيـماـ الـأـنـبـارـ وـنـيـنـوـيـ -ـ وـيـسـتـوـجـبـ تـغـيـرـاـ بـعـدـ آـخـرـ فـيـ الـإـسـتـرـاتـيـجـيـةـ.

في نيسان (أبريل) الماضي أقرَّ الكونغرس الأميركي مساعدـةـ عـشـائـرـ السـنـيـةـ تسـليـحـهاـ فـيـ شـكـلـ مـباـشـرـ، وـكـذـلـكـ إـقـلـيمـ كـرـدـسـتـانـ. وـعـلـتـ أـصـوـاتـ الـأـطـرـافـ الـمـرـتـبـطـةـ بـإـيرـانـ رـافـضـةـ هـذـهـ الـخـطـوـةـ، وـاعـتـبـرـتـهـ سـعـيـاـ أمـيرـكـيـاـ إـلـىـ تقـسـيمـ الـعـرـاقـ. وـعـلـىـ اـفـتـرـاضـ أـنـ هـذـهـ الـانتـقـاداتـ مـحـقـقـةـ فـهـيـ كـانـتـ سـتـكـونـ فـاعـلـةـ وـمـفـيـدـةـ لـوـ أـنـ إـيرـانـ أـتـاحـتـ خـيـارـاتـ أـخـرـيـ. هـذـاـ لـاـ يـعـنـيـ أـنـ دـوـافـعـ الـأـمـيرـكـيـيـنـ نـظـيـفـةـ، لـكـنـ يـنـبـغـيـ التـذـكـيرـ بـأـنـهـمـ طـلـبـواـ مـنـذـ بـدـايـةـ تـدـخـلـهـمـ، بـدـعـوـةـ مـنـ المـالـكـيـ، أـنـ يـكـونـ لـسـكـانـ «ـمـنـاطـقـ دـاعـشـ»ـ دـورـ وـمـسـاـهـمـةـ فـيـ تـحـرـيرـهـاـ، وـمـنـحـواـ الـحـكـومـةـ مـهـلـةـ زـمـنـيـةـ كـافـيـةـ لـتـرـتـيـبـ الـعـلـاقـةـ مـعـهـمـ. وـعـدـاـ فـجـوةـ انـدـعـامـ الثـقـةـ بـيـنـ «ـجـمـاعـةـ إـيرـانـ»ـ وـهـذـهـ الـمـنـاطـقـ الـتـيـ اـخـتـبـرتـ جـيـداـ اـرـتـبـاطـاتـ الـسـلـطـةـ وـمـرـجـعـيـاتـهـاـ الـحـزـبـيـةـ، فـإـنـ إـيرـانـ رـفـضـتـ عـلـىـ نـحوـ قـاطـعـ تـسـليـحـ الـعـشـائـرـ وـرـاحـتـ تـحـاـولـ رـبـطـ مـجـمـوعـاتـ اـسـتـبـعـهـاـ الـمـالـكـيـ بـ«ـالـحـشـدـ»ـ، لـكـنـ هـذـهـ الـخـطـةـ لـمـ تـبـرهـنـ فـاعـلـيـتـهـاـ. الـوـاقـعـ أـنـ الـعـارـفـيـنـ بـدـوـاـخـلـ الـسـيـاسـةـ الـإـيرـانـيـةـ الـخـاصـةـ بـالـعـرـاقـ وـأـظـبـواـ طـوـيـلاـ عـلـىـ تـأـكـيدـ رـفـضـهـاـ أـيـ «ـتـقـسـيمـ»ـ، بـلـ اـعـتـبـرـوـذـلـكـ «ـضـيـمانـاـ»ـ لـ«ـوـحدـةـ الـبـلـدـ»ـ، لـكـنـهـمـ تـبـيـنـواـ أـنـ مـاـ كـانـتـ تـبـحـثـ عـنـهـ إـيرـانـ، فـضـلـاـ عـنـ اـبـلـاعـ الـعـرـاقـ، هـوـ تـأـمـينـ تـوـاـصـلـ آـمـنـ وـدـائـمـ مـعـ سـوـرـيـةـ -ـ الـنـظـامـ وـبـالـتـالـيـ مـعـ لـبـنـانـ -ـ «ـحـزـبـ اللهـ»ـ، وـلـمـ تـكـنـ تـبـالـيـ بـمـصـلـحـةـ الـعـرـاقـيـيـنـ، نـاهـيـكـ عـنـ السـوـرـيـيـنـ أـوـ الـلـبـنـانـيـيـنـ.

وـلـأـنـ الـمـهـمـ عـنـ إـيرـانـ هوـ أـجـنـدـتهاـ فـإـنـ عـوـاـمـ عـدـةـ، أـهـمـهـاـ اـخـتـلـاطـ الـأـوـرـاقـ بـسـبـبـ «ـالـحـربـ عـلـىـ دـاعـشـ»ـ وـانـكـشـافـ هـشـاشـةـ نـظـامـيـ دـمـشـقـ وـبـغـدـادـ وـفـؤـيـتـهـمـاـ وـطـائـفـيـتـهـمـاـ، جـعلـتـ طـهـرـانـ تـبـدـلـ مـوقـفـهـاـ وـتـشـرـعـ فـيـ الـاستـعـدـادـ لـلـتـقـسـيمـ باـعـتـبارـهـ «ـالـحـلـ الـوـحـيدـ»ـ الـذـيـ يـمـكـنـهـاـ مـنـ الـحـفـاظـ عـلـىـ «ـمـصـالـحـهـاـ»ـ فـيـ الـعـرـاقـ كـمـاـ فـيـ سـوـرـيـةـ وـاسـتـطـرـادـاـ فـيـ لـبـنـانـ، وـذـلـكـ بـالـاعـتـمـادـ دـائـمـاـ عـلـىـ الـمـيلـيشـياتـ الـتـيـ أـصـبـحـتـ الـجـيـوشـ «ـالـوـطـنـيـةـ»ـ مـجـرـدـ رـدـيفـ لـهـاـ.

وـعـذـرـهـاـ فـيـ ذـلـكـ أـنـ الـتـقـسـيمـ يـتـحـوـلـ أـكـثـرـ إـلـىـ خـيـارـ دـولـيـ، وـعـنـدـمـاـ اـقـرـرـهـ جـوـ بـاـيـدنـ لـلـعـرـاقـ فـيـ عـامـ 2006ـ أـيـ قـبـلـ أـنـ يـصـبـحـ نـائـبـاـ لـلـرـئـيـسـ قـوـيـلـ بـاـسـتـهـجـانـ وـرـفـضـ، عـلـمـاـ أـنـ الـوـقـائـعـ عـلـىـ الـأـرـضـ أـكـدـتـهـ بـ«ـفـدـرـلـةـ»ـ إـقـلـيمـ كـرـدـسـتـانـ. كـانـتـ هـنـاكـ فـرـصـةـ لـإـيرـانـ كـيـ تـحـبـطـ الـتـقـسـيمـ، لـوـ تـوـافـرـتـ لـدـيـهـاـ الـإـرـادـةـ، غـيرـ أـنـ وـحدـةـ الـعـرـاقـ لـاـ تـسـتـقـيمـ مـعـ هـيـمـنـةـ إـيرـانـيـةـ. لـذـلـكـ، يـتـعـاملـ الـأـمـيرـكـيـيـنـ الـآنـ مـعـ وـاقـعـ صـعـبـ فـيـ «ـإـقـلـيمـ السـنـيـ»ـ بـعـدـمـاـ سـاـهـمـواـ وـإـلـيـرـانـيـيـنـ فـيـ صـنـعـهـ.

ما عـزـزـ التـغـيـيرـ فـيـ مـوـقـفـ طـهـرـانـ أـنـ حـلـيفـهـاـ النـظـامـ السـوـرـيـ اـنـطـلـقـ فـيـ تـعـاـلـهـ مـعـ أـزـمـتـهـ مـنـ خـيـارـ «ـالـتـقـسـيمـ»ـ إـذـاـ لـمـ يـنـجـحـ فـيـ

إخضاع الشعب، وما كان له أن ينجح على رغم كل ما بذله الإيرانيون لمساعدته. ومع تقدّم الأزمة وتعقّدتها زاد اقتناعهم بأن «سورية الأسد» هي الضامن الوحيد لمصالحهم، فمع سورية موحدة وحكومة جامعة سيخسرون كل شيء بعد كل هذا العداء الدموي الذي أبدوه للشعب السوري. والفارق بين بشار الأسد وساستة العراق أنه كان حاسماً أمره حتى قبل أن يثور الشعب عليه، أما العراقيون سنة وشيعة فلم يعدموا الأمل في إبقاء البلد موحداً، لكنهم أمضوا اثنى عشر عاماً في تظهير انقساماتهم وتعزيزها.

وإذ يستخدم الجميع «داعش» للإشارة إلى صعوبة التعايش مع الآخر، يحدسون بأن التقسيم سيجعلهم مستعمرات للقوى الخارجية ولن يكون وصفة للاستقرار بل للتقافل الداخلي.

على رغم أن تصريحات الجنرال أوديرنو، معطوفة على اقتراحات بايدن، لا تشكّل بعد سياسة أميركية، إلا أن الإيرانيين يربطونها بتسليح العشائر ليعتبروها مشجّعة. فإذا صار الأميركيون مقتنعين الآن بتقسيم العراق، فلا بد أنهم يتقدّمون أيضاً تقسيم سورية. وفي الحالين هناك تكريس للأمر الواقع الذي زرعته إيران وحلفاؤها.

الحياة اللندنية

المصادر: